

المذكرات

تأليف الأستاذ العلامة محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق .
قوامها ٣ أجزاء عدد صفحاتها ٩٩٢ ، طبع بمطبعة الترقى في دمشق ، الأول
والثاني منها في سنة ١٣٦٧ = ١٩٤٨ ، والثالث في سنة ١٣٦٨ = ١٩٤٩

مؤلف هذه المذكرات آري عبقرى كسبت به العربية والاسلام فى هذا العصر خيرا
كثيرا : أخرس لسان الشعوبية ، وحسم باطل المضللين ، وحى حوزة الحق . ولد فى دمشق
حيث العروبة نابضة العرق والاسلام خفاق اللواء ، من أب كردى من مدينة السليمانية
وأُم تركية من قفقاسيا ، فاستهوت عقله بلاغة العربية ، واستولى على له جمال
الاسلام ، حتى فنى فى حبهما فناء انعاش فى معشوقه ، وخدمتهما بما تنوء به العصبية
أولو القوة . تعجب به راحلة العمر الآن نحو الثمانين ، وهو فى دؤوبه على خدمتهما
والتضح عنهما واعلاء شأنهما كما كان فى عفتوان شبابه : تدر عروقة نشاطا ، ويتوب
ذهنه قوة ، ويزكو عمله الدائب خصبا ونماء .

وقد أنفق بواكير حياته فى الدرس والتحصيل ومثاقفة العلماء والأدباء ، وكان من
أساتذته الشيخ طاهر الجزائري ، ومنزلته فى بلاد الشام كمنزلة الشيخ محمد عبده فى
الديار المصرية ومنزلة استاذنا العلامة السيد محمود شكرى الألوسى فى العراق . وصرف
كهولته وشيوخوته فى كل عمل مفيد لدينه ولغته ووطنه ، فعانى الصحافة مدة طويلة ،
والصحافة مختبر يعين على فهم الناس ومعرفة ألوان الحياة . وغامر فى ميادين السياسة
فأدركه التوفيق والحيلة وذاق الحلو والمر ، وأوقعته جرائته فى مأزق كثيرة نجا منها
بالحزائم الى مصر والحجاز ، ولكنها أسلمته الى ركوب المخاطر فى الصحارى ، ومعاشرة
أهل المدر والوبر ، وأكل جريش الخطئة وخبز الملة ، وشرب الماء الرنق والأسن ،
والنوم بالعراء . وتقلب فى مناصب كبيرة ، وكان أحد القلائل الذين أوصلهم فضلمهم
وبلاغتهم الى الوزارة ، وندر من وصل اليها بهاتين الويليتين فى بلاد العرب كافة فى
هذا العصر . ثم انصرف عن السياسة انصرافا تاما ، وآثر التفرغ للعلم والتأليف وهما
فى بلاده ، كما فى كل بيئة ضيقة ، حين شأنهما ، محصورة أجنحتهما ، فرفع بجهاده
لهما من شأنهما ، وطار بهما كل مطار . وقد رحل أربع رحلات الى بلاد الغرب يبحث

فى خزائن كتبها العظيمة عن الأصول التى تجلو حضارة العرب والاسلام فى معارضها الفاتنة ، ويدرس أحوال الشعوب الغربية وطبائعها وشؤون العمران والادارة ونظام الدولة عندها ليكسب بذلك علما ينقله الى وطنه فى طوره الجديد ، طور الانتقال والتجديد . وعمل على تنظيم دار الكتب بدمشق لتكون مرجعا ميسورا للباحثين ، وحث الناشئين على التعلم ، وشجهم ، وامتد تشجيعه الى كل من توسم فيه نبوغا من الشاميين وغيرهم ، وافتتح بكتبه (« خطط الشام » و « الاسلام والحضارة العربية » و « أمراء البيان » و « القديم والحديث » و « أقوالنا وأفعالنا » و « المذكرات » وغيرها) عهدا جديدا فى سورية للتأليف المبتكر الذى انقطعت الصلة بمثله منذ عصور . وأسس (المجمع العلمى العربى) وهو أعظم صرح للعلم قام فى ديار العرب فى أيامنا بمجهود رجل ، وقد لقى فى سبيله الأذى ، فلم تنه عن بناءه وتشيته وتبنيه ولقت أنظار الناس اليه ، رفع به اسم بلاده ، وخدم به العلم والتاريخ ولغة العرب ، وجعله مثابة كبار العلماء والأدباء من العرب والمستعربين من علماء المشرقيات ، وكان من نتاجه الطيب خمسة وعشرون مجلدا من مجلته التى حققت بالروائع من آيات العلم والبحث والتحقيق ، وطائفة حسنة من الكتب النادرة أحيائها بالنشر . وما برج يواصل جهاده فى احياء التليد وإبتكار الطريف فى العلم والأدب بهمة لا يعرفونها القصور ورغبة لا يدركها النام ، وكذلك شأن المطبوعين على حب المعرفة واذاعة الخير .

وهذه (المذكرات) من آخر ما قدمه العلامة الجليل الى الأئمة العربية من مؤلفاته ، وهى مرآة حياته ومستودع أفكاره وآرائه وسجل العصر الذى عاشه والرجال الذين عاشهم وخالطهم فى الشام ومصر وأوربة ، حفلت بصنوف من صور الحياة وخفايا الناس وألوان من التجارب والاختبارات والأحوال والنزعات والآراء والنسل والعبر فى السياسة والاجتماع ، وفى الدين والثقافة ، وفى الاخلاق والعادات . عرض فيها للدول والجماعات كما عرض للأفراد ، وعنى بالشؤون الكبار والصغار ، ونظر فى كل ذلك الى القيم والأقدار من حيث آثارها ، فلم يقومها بالجاه والمنصب والمال والشهرة ، بل قومها بالفضل والأدب والجهاد ونبل النفس ، فبى وأمثالها المعايير التى وزن بها الرجال والأعمال ، وأصدر عنها أحكامه ، فربما أعلى من شأن حوذى لاحسانه وطيبة نفسه ، وحط من قدر زعيم من زعماء المال أو الجاه أو المنصب لأن سيرته مؤذية أو لأنه لا خير عنده ولا نفع للأئمة من حياته . وهكذا خاض فى شؤون وأحوال شتى ، ودون ارتساماته وآراءه فى صراحة وصدق ، فسمى الأشياء بأسمائها ، وجلا كثيرا من

الحقائق الخفية عواري ليس عليها ثياب ولا من دونها ستر أو حجاب • وهذا هو الذي يجدى تدوينه في باب التجديد والاصلاح •

لست أزعم أن المؤلف قد سلم له كل ما دونه من ارتساماته وآرائه ، ولا سيما في السياسة والرجال ، فانه هو نفسه يعترف في آخر هذه المذكرات (٩٩١) بأنه « ربما وقعت له هنات كان الأجدر أن يسلم منها كتابه » ، ثم يذكر السبب في وقوع هذه الهنات له فيقول : « وما كان السبب فيها الا بعض من أدلوا لنا بمعلومات وهموا فيها » • وليته أشار الى هذه الهنات ، وبين وجه الخطأ الذي لم يصم منه ، لتمييز مرويانه عن انطباعاته وآرائه ، وليعرف الناس - ومن حقهم أن يعرفوا - هذه الهنات التي وقعت له ، و « من فيك أحلى » •

وقد مرت في كتابه بأشياء لا أحسبها من هذه الهنات التي عذاها ، بل هي من باب آخر مما يتصل بالسياسة وبالرجال ، وعلى بعضها طابع العجلة والارتجال ، وعلى بعضها أثر الحدة و « الانفعال » ، وما يدرينا اذا أخذنا في سردها ، وهي ليست بالكثيرة ، أنه سيقول في ردنا ما قاله في تلك الهنات (٩٩١) : « من ذا الذي عصم من الخطأ ؟ والاجتهاد يختلف في الحكم على من اشتركوا في معاناة المصالح العامة اختلافه في انصافهم على ما يوجب الحق ، ويكفي المؤلف وهو يفيض في مسائل متشعبة أن يحصل الى قرائه ما خبره بنفسه » ، فيسد بوجهنا الطريق الى مجاذبته أطراف الحوار !

وهو يقدم هذه (المذكرات) فيقول : « ليس الموضوع الذي أعجله الان ذا مكانة كبرى اذا نظر اليه أنه مذكرات شخصية كتبها رجل ما كان في مقام تشخص اليه أبصار العالم ، ولا هو من أمة كان له التقديم والتأخير في مجرى سياستها • أنا أعرف ما كان لبلادى الى عهد قريب كيان تعرف به في العرف الدولي ، ولا هي من احكام الأمر بحيث يرهب بأسها ويسمع صوتها ، ولا هي من العلم والفن بحيث يمكن لها في مجالس العلماء ، ولا هي رابحة الصفقة في أسواق الحضارة ، فيتنافس العارفون في اقتناء بدائعها وأعلامها • وأعلم أن من الأشياء ما يكبر بكبر مصدره ، ومن الرجال من يعظم في العيون بقدر ما لا مته من عظمة » •

ونقول على سبيل تقرير الواقع ، وهي غير سبيل المؤلف في هذا التواضع : ان موضوع مذكراته انما يتمتع عندنا في جملة بمكانة ملحوظة من ناحيتين : شخصية المؤلف الذي يتميز بطول الخبرة ، وصدق اللهجة ، وصراحة الأداء • وبحسبه أنه في مقام تشخص اليه أبصار قومه ان لم يكن في المقام الذي تشخص اليه أبصار العالم ، وهو

انما يكتب لقومه لا للعالم ، وللعالم بعد - اذا شاء - أن يستفيد مما كتب، ففي خبرته ثروة انسانية لا غنى عنها للمستفيد من أى أمة كان .

هذه ناحية ، والناحية الأخرى هى مزية الكتاب من حيث أنه حفلت صفحاته الـ ٩٩٢ بمسائل متشعبة مما اضطربت به الحياة فى مصر والشام وغيرهما من أقطار العرب ، وخبرها المؤلف بنفسه فى مدى ستين عاما ، أى منذ وعيه ومعاناته الصحافة والسياسة وهو شاب يافع ، وقد عاصر ظهور اليقظة وسائر ما لا يسها من أحداث وتطورات وانشابات وكان له فى معظمها رأى ومقال ، وتلك مزية جليلة منظور اليها من حيث انها تستمتع بفضيلة الاختيار الشخصى ، وهى ليست بالميسورة لكل أحد فى معظم الأحوال . وليست هذه اليقظة التى يدون المؤلف ارتساماته عنها وآراءه فيها ، وقد جاءت بعد سبات طويل غط فيه العرب والمسلمون غطيًا أحقابا ، بهينة الثمن أو قليلة الحبر أو ضعيفة الأثر فى الحياة العربية كما يظن القارئ لأول وهلة ، حين يجدها لم تؤت بعد أكلها ، ومن عادة الناس أن يقرنوا أحكامهم بالنتائج لا المقدمات ، واذ كانت النتائج لم تظهر بعد ، وقد تلوح للانظار بعيدا بلوغها ، فهم لا يحسون حيا قويا آثار هذا التطور فى كل ناحية من نواحي الحياة ، ولذلك هم لا يكبرون شيئا من أسيانه ، بل لعالم لا يرون فى الغالب الا نقائصه ، وتظل أذهانهم عالققة بصور الماضى وأطرافه وغافلة عما يخلق دونهم من نوازع التقدم والحياة .

فان لم يكبر السواد مصدر هذه المذكرات ، كما يريد المؤلف أن يظن ، فالخواص الذين يقدرون قيم الأشياء حق قدرها جد عليمين بقيمة هذا المصدر ، واذ كان « من الرجال من يعظم فى العيون بقدر ما لأئمة من عظمة » فالعلماء بالحقائق لا تغيب عن بالهم عظمة الأمة الاسلامية التى منها المؤلف فى ابان مجدها وفيما تركته من تراث يسعى المؤلف ونظراؤه فى احيائه . واذ قل مشاركونا فى الشعور بعظمة أمتنا فى التأريخ ، فيحبسنا - نحن العرب - شعورنا بها ، ذلك الشعور البالغ الذى يحفزنا الى البناء كما بنى أوائلنا ، ويجعل كل بناء منا عظيم انقدر فى عيوننا بقدر ما فى نفوسنا من شعور بعظمة أمتنا وايمان بمجدها .

كتب المؤلف كتابا كثيرة « كان الجسد سداها ولحمتها ، وما جوز لنفسه الحياض عن قوانين المؤلفين ، ولا الصدود عن آيين المتقدمين والمتأخرين » و « أراد هنا - فى المذكرات - أن ينزع قيودا أثقلته وهو يراعيها ، وأن يبعد عن ذلك الطراز المقيسد ، ويخرج الى الأسلوب المطلق » ، وقال :

« أحاول اليوم ، وقد رأيت الدنيا مهزلة ، وذقت حلوها ومرها ، وكرعت خمرها وخلفها ، أن أهزل أحيانا ، وأسخر أحيانا ، وأضحك أحيانا ، وأبكي أحيانا ؛ لأن نفسى شغيت التزام الجد ، وتبرمت من الاضطراب فيه زما طويلا ، وطيعتى تعصى على انشىء الرتيب » .

وكذلك قال زهير بن أبى سلمى من قبل :

سئمت تكليف الحياة ، ومن يعيش ثمانين حولا - لا أبأ لك - يسأم !

وبدهى أن من يكتب بهذا الأسلوب المطلق عن أهل عصر يعيش بين ظهرانيهم ، ويعطى كل انسان كتابه بشماله ، انما يعرض نفسه لغضب الناس وسوء قائلهم فى حقه كالذى حدث له من بعض أصحابه وأحبائه بمصر حين نقد سلوكهم معه نثاروا عليه يناوشونه المطاعن وقوارص الكلام ، وليس بمثل هذه السهولة تتسوخ المودات بين الاصدقاء وتسى اليهود بين العلماء .

ولكن المؤلف الذى أراد أن ينزع قيود الجد هنا ، قد غلبه الجد فى أحيان كثيرة ، وعقد العزم على ألا يحفل غضب انسان كثرنا من كان مذوق : « ربما يتألم بعض من عرضت لذكركم بما يسخطهم ، فانا لا أخجل غضبهم ، ولا أسعى الى رضاهم » . ولعلى تعددت أحيانا تلك سترهم ، لأنهم يبتكون بأعمالهم ستر هذه الأمة لا يبالون . وهو يعنى بهؤلاء غير من عنيتهم من رجال العلم والأدب ، وهم من أجل اصدقائه ، وما أحد منهم هناك ستر هذه الأمة بحمد الله . ثم يمضى فى حديثه بل فى ثورته فيقول : « واذا كنت لم أستخذ أمام من كان فى أيديهم النفع والضرر ، نانا لا أصانع من لا يرضيهم الا سكوتى عن مساوئهم » . دأبت على قتال الأورداء ، والثياب غض ، والرغبة فى اطلالة جبل الأجل عظيمة ، فحرى بى ألا أكف عنهم ، وأنا أطوى آخر مراحل العمر ، وأنفض اليد من بهرج الحياة . قصدت بما دونت التحذير من دجل الدجالين ، والتبئية على أحابيل المبطلين ، والعمل على مكافحة الظالمين ، ليعرف أن كل جيل لا يخلو من دعاة يحاول لهم الجهر بالحق منهما جسمهم ، ومن أفضل الطرق اليه ضرب السفهاء فى وجوههم بعبويهم . جربت السكوت عنمن لم يأتوا ببرهان واحد على حبيب الخير ، وما جنيت من الاعضاء الا البلاء . الجهر بالحق ، ومقاومة الظلم ، من أول مراتب انهوض ، والساكت عن الحق شيطان أخرس .

هذا هو روح المذكرات ، أردت النص عليه من كلام المؤلف ، لأنه يحدد ما أراد من كتابتها تحديدا دقيقا فى ايجاز ووضوح . وهو روح قوى خالج معظم صفحاتها ، وكان فى بعضها - كما تحسه فى هذا التقديم من كلام المؤلف - كالسيل الهدل يدوى

صوته ويخرب أثيره ، ولكنه ينشأ مما يسبح من غريزه على الأرضين الصالحة نفع كبير .
والحق أن المجتمعات لا يمكن أن تحيا بالمق والمصانعة والرياء ، بل لعلها لا يقتلها
شيء كما يقتلها هذه العيوب التي يتصف بها كثير ممن يتصدون لقيادة الرأي العام فيتملقونه
ويصرفونه بهذه الأساليب ، وهم في الواقع لا يتقودونه الى الرشاد كما يظنون ، بل
يتقودونه الى الضلال والهلاك وما يشعرون ، و « صديقك من صدقك لا من صدقك » .
لقد نفّض لنا مؤلف المذكرات الحر بهذا الأسلوب الجريء خوالج نفسه وآلامها
وآمالها ، يريد اصلاح المجتمع الذي عاش فيه وتطهره من لوثاته ، و « كان يحرص فيها
ألا يتكلم على نفسه ، وألا يقول قلت وفعلت ، فتعذر ذلك ؛ لأن أكثر ما فيها مما سمعته
أذناه ، ورأته عيناه ، وورعته نفسه ، فمن الصعب ذكره مجردا من سامعيه ورائيه
وروايه . وهون عليه هذا الأسلوب أن رأى نفسه لم يأت بدعا ، وتابع طريقة من سبقوه
من الغربيين في تدوين مثل هذه الارتسامات » .

وأنت في كتاب المؤلف هذا ، ان كنت جالسه ، كذلك تسمعه يتحدث ، فتجسم
لك معانيه بما يرن في أذنك من صوته الأجنس وتخيّله من صورة أدائه للكلام أداء
يتفرد به في صراحته وطلاوته وحلاوته .

فأسلوبه كتابا ، أسلوبه متحدنا ، وهو أسلوب متمتع يختلط بأجزاء النفس
ويأخذ بمجموع القلب ؛ لأنه فيض التريحة ، ووحى الطبيعة ، وقل في الكتاب من يكتب
لك كما يحاورك ويخاطبك ليؤثر فيك . وسدى كلامه ولحمته الفصاحة والسلاسة ،
يبد أن تلقيه مترخفا في لفظة أو تعبير .

ومن أروع مشآئته في هذه المذكرات ، فصل عنوانه « في عشر الثمانين » ، جود
فيه غاية التجويد ، أنقل لك ذروا منه ، لأنه يلخص منازعه ويقف قارئه على بلاغته .
قل :

« يا نفس ! هو ذا الحادى يبيب بك لاجتياز المرحلة الأخيرة دراك ، وخفى في
خف من أمثالك للحاق بمن تقدموك من الأهل والعشير ، فلو توت ضائق وأنت على
أرفأز ، والمنزل منزل قنعة .

« يا نفس ! لا تنضبى ولا تعبى ، فقد عمرت طويلا ومعت كثيرا ، وفنت بجمال
الوجود ، وجلال الطبيعة ، زهت بصنع الخالق والمخلوق ، واستكرت من احلان
وانعارف ، وسعدت اذ كنت أقرب الى الفأول من التساؤل ، والى الرجاء أدنى من
القيوط ، والى السرور أكثر من النهم ، وعشت في سلطان الرضى طيبة الطعمة لا يد

لا أحد عندك •

« أكثر ما آذاك في طويل أيامك أن كنت تشهدين قوى ضائعة ، وطريق الإصلاح مهبطاً أمام أصحاب السلطان وهم لا يملكونه ، فطابت طغاة الاستبداد بالقيام بواجبهم ، فسأتهم جرأتك عليهم ، وتربصوا بك الدوائر • وقالت الشعوبيين أعداء العرب من الترك والصهيونيين والافرنج فشق عليهم سماع صوت الحق ، وما استطاعوا أن ينالوا منك على ما حشروا من أبالسهم ، وافترخوا من أفكهم ، وأنت عزلى لا سلاح لك الا الحق انذى أخذ من قلبك والا انفرام باستعادة عظمة الأئمة وائمة •

« يأنفس ! الحق مر والصادع به معذب ، وصاحبه أبدا حرق لطعن الطاعنين ، ومن يحاول اصلاحا وتجديدا فهو عرضة للمصفتين والمصفرين ، ولا يكرثك هذا فالتعنون ما اعتادوا أن يستحيوا لأول صارخ يحزل زحزحهم عن عقائدهم ، ومنى هنس أرباب الأرواح الجمدة ان يحازل ادخل روح جديد عليهم ؟ والناس ما ختموا كلهم عقلاء وحكماء •

« وكيف تطمعين يأنفس في رضى انظام والجاهل ، وأنت ما حلالك غير مكافئة المستبدين والسارقين ، ومباينة المخترقين والضللين ، ومكنت معوم بين علملين : اما اقرارهم على فسادهم فعددين من المنافقين ، أو الانكار عليهم وتحمل أذاهم فنقومين بواجب وتؤيددين دينا •

« عاشرت أجيالا ثلاثة كان في الأول معلوك ومؤدبوك ، وفي الثاني اخوانك ومعارفك ، وفي الثالث المستحسنون والمستهجون لعمالك • وكان جيلك الأول خير أجيالك لما تخلله من آمال وأحلام ، وبشارات بما كنت ترتجين في دنياك من استفاضة الصيت واردة النفع •

« جهدت كان الموت لا يلافيك وكنت كل يوم تتوقعينه ، فما تصر حسابك له من أجلك ولا زاد فيه ، وتعرضت للهلاك غير مرة فنجوت لا بحسن حياتك بل بقضاء وقدر • وأدركت بأخرة أن ليس في العالم أمس واليوم وغدا غير التكرار ، وأن البشر في بلاء ومحنة ، فإذا خرجت من هذه الفانية وحسناتك عدل سيئتك ، أو شالت الحسنات تليلا في ميزانك ، فقد فزت فوزا عظيما ، وأنت اذا لم يحق الزمن أغراضك كنها ، فليست أول من أعوزته القوة وخانه التوفيق ، ولا أول من برد فدفن في انراب ، فلا تسأل خالقك بعد الذى جرى لك الا العفو والعافية •

وللى ، بعد هذا ، لن أجد وصفا لهذه المذكرات خيرا مما وصف به الأستاذ ابن

العميد كتب أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، قول : اننا « تعلم العقل أولا ،
والأدب ثانيا » . وكذلك هذه المذكرات .

وذكرت منزهات الدنيا بين يدي أبي بكر محمد بن الحسن بن يزيد ، فقيال :
« هذه منزهات العيون ، فأين أنتم من منزهات القلوب ؟ » ، قلوا : « وما هي ؟ » ، قال :
« كتب الجاحظ ، وأشعار المحدثين ، ونوادر أبي العيناء » . وأنا أضيف إليها رابعا : كتاب
(المذكرات) ، فهو بدع في كتب هذا العصر ، وما يرجي من نفعه أمتع وأفضل وأغزر .

محمد بن عبد الله الطوسي

اليزيدية

تأليف الباحث الفاضل صديق اندملوجي ، قوامه « ٥١٨ » ص من النسخ المتوسطة ،
وقد طبع بمساعدة مالية من المجمع العلمي العراقي ، في مطبعة الاتحاد بالموصل
سنة ١٣٦٨ = ١٩٤٩

اليزيدية سفر حافل بذكر عترة اليزيدية وطبقاتهم الروحية ورسومهم وعاداتهم
وشعائرهم ومناسكهم وكتبهم الدينية ، ومرافد أئمتهم وقبائلهم وشعائرهم ورؤسائهم
وقراهم ، ورحلات المؤلف إليهم ونصه لجماعة منهم ، وأاريخهم القديم والحديث ،
والاستناد على من كتبوا في أحوالهم من شرقيين وغربيين وغير ذلك .
ولقد استوعب هذا الكتاب أحوال اليزيدية الدينية وأحوالهم الاجتماعية واستوفاهما
بأسلوب واضح مستتب لم نجد فيه عيبا غير الغفطات النحوية المبثوثة هنا وهناك ^(١) ،
والظاهر أن المؤلف نساها في اعتبار النحو في كتابه لبعض الأسباب ، ومن
هنا سرى اللحن إليه ، فعسى أن يستدرك ذلك في الطبعة الثانية ، ليكون كتابه المرجع
الاعظم في أحوال اليزيدية مع سلامة تعبير وحسن تصوير .

وقد زين الكتاب بصورة المؤلف وصور أخرى موضوعية ، زادته حسنا الى حسنه ،
ووضوحا الى وضوحه ، وباقتراحات اقترحها المؤلف لاصلاح حال اليزيدية وضمها
مستقبلهم الاجتماعي والنفسي فانه خاطبهم وصادق « كدرف » عدة رجال منهم

(١) فني ص ١ « الجملات الأربعة » وفي ص ٢١ « وترجع أن الشيخ أبي بكر »
وفي ص ٥٦ « لظهور هكنا دجائين » وفي ص ٦٣ « سوف لا تتم على يده » وفي ص ٨٠
« ان صخر الاول » وفي ص ٩١ « وعما هذين » وفي ص ١٠٠ « من أربعة وأربعين سنة »
وفي ص ١٠٥ « ما لم يلاقيه أصحاب دتوة » ، ازاد « الأربع وأبا بكر ودجائين كهؤلاء »
ولئن تتم وصخر الاول وهما هذان وأربع وأربعين سنة وما لم يلاقيه »

فأصبحوا منه بذل النصيحة لهم والعطف عليهم والدعوة الى حفظهم ورفقهم .
 وكثرة مجالس هذا الكتاب الجليل لا تمنعنا الاشارة الى ضعف فيه من الوجهة
 التاريخية يعز علينا أن نذكره ولعل الاخلاص في النقد يشفع لنا عند المؤلف الفاضل في
 ذكرنا اياه . ومن ذلك قوله في ص « ل » :

« الشيخ عدى بن مسافر الأموى الذى يتصل بالآب الرابع بمروان بن الحكم
 رابع الخلفاء الأمويين » .

وهذا محال لأن مروان المذكور من أهل القرن الأول للهجرة وعديا من أهل
 القرن السادس ، فاربعة القرون التى بين أزمانهما تقضى أكثر من عشرة أجداد فى أقل
 تقدير ، ولعل الصحيح ما ذكره ابن خلكان فى الوفيات ونقله المؤلف فى ص ٧٤ وهو
 أن مروان بن الحكم هو الجد الحادى عشر لعدى بن مسافر ، فهو قد كان حريا أن يشير
 الى هذه الاحالة .

وذكر فى حاشية ص ٤٤ الشيخ قضيبة البان الموصلى أنه أبو عبدالله الحسين بن
 عيسى بن يحيى العلوى الحسى وأنه توفى سنة « ٥٧٠ » ، وقد اختلف فى تسميته قضيبة
 البان ، فالشيخ أبو الحسن على بن أبى بكر المعروف بالسائح الهروى قل فى مزارات
 الموصل : « وبها قبر الشيخ حسين المعروف بقضيبة البان ^(١) » ولم يذكر أنه كان علويا ،
 وقال الشيخ أمين العمري : « الشيخ حسين قضيبة البان ابن عيسى بن يحيى ... وأمه
 أمة أحر زهرة بنت يحيى بن محمد بن موسى المنبرقع بن محمد الجواد بن على الرضا
 وإنما سمي قضيبة البان لجميل صورته وحسن هيئته وهو أحد الأبدال ، له كرامات
 وقبره غربى الموصل خارج السور نحو رمية سهم ، توفى سنة ٥٧٠ ^(٢) » . وترجمه
 النشطنوفى ولم يذكر الا لقبه « قضيبة البان » ولم يقل انه كان علويا ، قل : « سكن
 رضى الله عنه الموصل واستوطنها الى أن مات بها قريبا من سنة سبعين وخسمائة وبها
 دفن ^(٣) » .

وذكره ابن الفوطى بما فيه كفاية للباحث قال : « قضيبة البان أبو على
 عمر بن محمد الكردي الموصلى الزاهد ، كان من العارفين المجذوبين الذين
 يتكلمون على الخواطر ، روى عنه الخطيب شهاب الدين عمر بن أبى القاسم

(١) كتاب الزيارات « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٥٩٧٥ ، الورقة ٩٤ » .

(٢) عنوان الشرف « نسخة الدار المذكورة ، ٥١٣٨ ، الورقة ٩٠ » .

(٣) بهجة الاسرار ومعادن الانوار فى بعض مناقب الشيخ عبدالقادر الجيلانى

ابن المفرج بالموصل سنة ستمائة ، قال : كنت ذات يوم بالموصل جالسا في سوق الصوافين إذ أقبل قضيب البني ، وكان ذا شكل عجيب : طولا من الرجال على هيئة الأكراد ، مكشوف الرأس مقزح^(١) الشعر ، لا يستقيم على جهة ، عريض اللحية قبلا ، مطرق (كذا) كأنه أعمى وليس بأعمى ، يمشي في الأسواق ولا يتكلم ، حاف عليه جبة صوف ، مشدود الأذيل والأكمام . فلما قرب مني - وكان هناك شخص قد وقف ووعظ وخوف بالله تعالى ثم انصرف - قال لي ، وهو تجاهي : كم من مذكر بالله ناس لله ، وكم من مخوف بالله ينسلخ من آيات الله ، وذكر كلمات أنسيتها^(٢) .

فهذا هو القول الذي نراه صحيحا في اسمه وجيله وزمنه ، ونزويده بما ذكره أبو المظفر سبط ابن الجوزي في ترجمته عماد الدين محمد بن يونس بن منعة الفقيه الشافعي الموصل المتوفى سنة ٦٠٨ ، قال : « والتقاء قضيب الباني الموله يوما قتل له العماد : سلام عليك يا أخي كيف أنت ؟ فقال : أما أنا فبخير وقد بلغني عنك أنك تغسل أعضائك كل يوم ، تسطف اللقمة التي تأكلها^(٣) ؟ فقوله : « يا أخي » يدل على تقارب العمرين . وذكر المؤلف الفاضل في ص ٧٣ « الأسرة العدوية ومكائنتهم في التاريخ » وبدأ بذكر الشيخ عدي بن مسافر الأموي فأحسن انتداء عليه وبجله وعظمه ثم بحث عن السبب الذي حمله على الهجرة من الشام إلى جبال الأكراد ، قال : « يقال أنه بعد سقوط الدولة الأموية هاجر البعض من رجال البيت الأموي مع مواليتهم الأكراد إلى هذه الجبال وانزروا فيها خوفا من العباسيين الذين كثروا يتقربونهم ويكثرون القتل فيهم ، وقد عرف عدي هذه الجبال وجاءها واختار السكنى فيها . والحقيقة أن الأمويين لم يسبق لهم هجرة إلى هذه الجبال لا قبل عدي ولا بعده ، ولهذا الكلام موضع آخر غير هذا » . قلنا : بل التاريخ يشير إلى قول من قال بانتقال بعض الأمويين إلى تلك البلاد ، قال المسعودي في أخبار مروان الحمار آخر الخلفاء الأمويين « وقد كان سليمان بن هشام ابن عبد الملك اتصل بالحوارج بالجزيرة خوفا من مروان^(٤) » . ومن العلوم أن أمهات مدن الجزيرة الموصل وميافارقين وآمد وماردين والحلب وسنجار ونصيبين ورأس عين

(١) أي ليس بأفزع وإنما حصى شعر رأسه وبتيت منه بقايا في فواحيه .

(٢) تلخيص مجمع الآداب على معجم الأسماء في معجم اللباب « ج ٤ ص ٣٠٦ » .

من نسختي .

(٣) امرأة الزمان « ج ٨ ص ٣٦٥ » قال المؤرخ في العماد المذكور « وكان به وسواس في الطهارة يبعث كل يوم غلامه إلى البحر فيقتل في وسط الشط يملأ الأباريق فيحوضها بها » قال : ففهم قول قضيب الباني فرجع عن ذلك .

(٤) مروج الذهب طبعة المطبعة البهية ج ٢ ص ٢٠٣ .

والرقة وحران والرها ، فاقصا سليمان بالخوارج في مواضعهم لا يكون الا بعد
القصد اليهم.

وعزا المؤلف هجرة الشيخ عدى الى حبه السياحة كمادة المتصوفين السياح ولم يلتفت
الى أن الدولة الفاطمية في زمن انتقال عدى من الشَّيْم كانت تحكم في كثير من تلك
البلاد ، ومذهبها وعقيدتها معلومان ، وهي ذات الكلمة والسلطان ، فلعل الشيخ عديا
هرب من حكم تلك الدولة التي كانت لا تخرج من ارتكاب ما يؤذى العباسيين ، فضلا عن
الأمويين ، والهجرة سبيل معروف الى النجاة من الاضطهاد قديما وحديثا .

وقد في ص ٧٧ : « ظهر لنا مما تقدم أن الشيخ عديا هو الرجل الفذ الذي ظهر
في عصره وفق أقرانه في زهده وورعه الذي جمع اليه وفور العرفان والعلم . .
والتحقيق أنه لم يكن فذا فقد أجمع المؤرخون على أن الشيخ عبدالقادر الجيل كان أعظم
منه وأجل وأرسخ قدما في المجاهدة والزهد ، وعدرا عديا ممن أقر لعبدالقادر بالقطبية
أى التقلية^(١) .

وتكلم المؤلف في ص ٨٤ على شمس الدين تاج العارفين أبي محمد الحسن بن
أبي المنأخر عدى الأصغر ، قال : « وقد احتل ست سنوات صنف فيها كتب . . جلوة
لأهل الخلوة » أودع فيها عقيدته التي خالف فيها مبادئ الاسلام وقد نقد الكتاب ولم
يعلم شيء عنه . ونرجح أنه اتصل بالشيخ ابن عربي . . . ومنه أثر من غيره انتقلت اليه
عقيدة وحدة الوجود فادت الى القول بالرجعة والحلول وبنى عليه مذهب الذي عرف
به . . . ان قيام الشيخ حسن بهذه الدغوى مما أيده المؤرخون الذين تكلموا عنه حتى
نزه أحدهم بالمأله . . . »

وحقيقة الأمر أن الباحث الفاضل لم يفهم معنى كلمة « المأله » التي هي من صفات
المدح للزهاد العباد ، فعدّها قدحا ونبرا . فالمأله في العربية الشدريد التعب ، قال الجوهري
في الصحاح : « والمأله : التعب وانتسك » وقال الزمخشري في أساس البلاغة : « فلان
بأله : يتعب . وهو عابد مأله » . وفي المصباح المنير « أنه يأله من باب تعب الاله بمعنى
عبادة وتأله تعب » . ومن الحق أن لكل كلمة قيمتين : قيمة معجمية وقيمة استعمالية
وعليها المتحول اذا تطرق انشك على معناها ، ولكن « المأله وأصله التأله » واضح معناه كما
رأيت ، ومع ذلك نود أن نذكر القيمة الاستعمالية للأله ، ففي الشعر والشعراء قول ابن
تيمية « وكان زهير يتأله ويتعفف في شعره » ، وفي مروج الذهب^(٢) « وذلك عند تنسك

ابن الزبير وتآليه وإظهاره الدعوة لنفسه . • وقول رؤية :

لله در الغائبات السده سيجن واسترجعن من تأليه
وجاء في رسائل الرازي (١) . ومن قبله سقراط استخلى المأله (٢) . • وهذا
الوصف مستفيض في كتب التاريخ والتراجم الا أن الناقد ملزم التمثيل والاستهاد .
وبذلك أخذنا .

وبعد أن ظهر أن الشيخ تاج العارفين « حسنا » كان مثأله أي متعبدا متسككا ،
بشهادة المؤلف الفاضل كتابة نسأله كيف صدق بما نسب اليه ؟ فابن شاكر الكبي الذي
اعتمد عليه قل فيه : « رحمه الله ورضي عنه » (٣) . • وقال شمس الذهبي : « سنة
أربع وأربعين وستمائة » (٤) الحسن بن عدى بن أبى البركات صخر بن مسافر
ابن اسماعيل الملقب بتاج العارفين شمس الدين أبو محمد ، وجده أبو البركات هو أخو
الشيخ عدى ، وكان الشيخ حسن هذا من رجال العالم رأيا ودهاءا وله فضل وأدب
وشعر جيد وتصانيف في التصوف وله أتباع ومريدون بالنون فيه ، وبينه وبين الشيخ
عدى من الفرق كما بين القدم والفرق ، وبلغ من تعظيم العدوية له ما حدثت به أبو محمد
الحسن بن أحمد الأربلي قال : قدم واعظ على الشيخ حسن هذا ، فوعظ حتى رق حسن
وبكى وغشي عليه ، فوبى بعض الأكراد على الواعظ فذبحه . ثم أفاق الشيخ حسن
فرأى الواعظ مذبوحا . فقال : ما هذا ؟ فقالوا : وألا ايش هذا من الكلام بكى سيدنا
الشيخ (٥) ! فسكت الشيخ حفظا لدسته وحرمة . وكان الملك بدر الدين لؤلؤ صاحب
الموصل قد خاف منه فعزل عليه حتى قبضه ثم خنقه بوتر بقلعة الموصل خوفا من الأكراد
لأنهم كانوا يشنون الغارات على بلاده فخشى (٥) لا يأمرهم بأدنى ابتداء فيخربون بلاد
الموصل لشدة طاعتهم له . وفي الأكراد طوائف يعتقدون الى الآن أن الشيخ حسنا
لا بد أن يرجع ، وقد تجمعت عندهم زكوات ونذور ، ينتظرون خروجه وما يعتقدون
أنه قتل . ورأيت له كتابا فيه عشرة أبواب أحد الأبواب اثبات رؤية الله عيانا وأن غير واحد
من الأولياء رأى الله تعالى عيانا ، واستدل على ذلك - نعوذ بالله من الخذلان والضلال - .

(١) طبع المشرق بول كراوس « ص ٣٦ » .

(٢) معجمنا اللغوي وقد جمعناه في ربع قرن ولا يزال في التعميد والزيادة .

(٣) فوات الوفيات « ج ٢ ص ١٢٣ » .

(٤) يعنى « مات » و « توفي » وعمر من اصطلاح المؤرخين كقولهم « وفيرها » أى

في هذه السنة من دون ذكر « توفي » ، وعن الناس من لا يعلم هذا ويظنه نقصانا في

التواريخ ، فليعلمه .

(٥) كلامهم بالعافية في ذلك الزمان .

ومن تصانيف الشيخ حسن « محك الايمان » وكتاب « الجلوطة لأهل الخلوة » وكتاب « هداية الأصحاب » وله ديوان شعر فيه أشياء من الاتحاد ، فمن ذلك :

وقد عصيت اللواحي في مجتبا وقت : كفوا، فهتك الستر ألقبي^(١) .
وأشد ما رأينا من الطعن عليه ، وهو من خصومه في المذهب والحكم والسياسة ، ما نقله الخزرجي في تاريخه في وفيات سنة « ٦٤٤ » قال : « ومات الشيخ الكبير تاج العارفين شمس الدين أبو محمد الحسن بن عدي بن أبي البركات صخر بن مسافر العدوي وكان من رجال العالم عقلا ورأيا ودهاء وله نظم وأدب وتصانيف في التصوف منها كتاب « محك الايمان » وكتاب « الجلوطة لأرباب الخلوة » وكتاب « هداية الأصحاب » وفيه انحراف ظاهر لكل مسلم عن الخلق (كذا ولعلها الحق) وعظام لا تحتمل ، وله كتاب آخر فيه مصائب لا يمكن التعلق بها ، وكان صاحب الموصل يخاف منه فتحيل عليه حتى ظفر به وجسه ثم خنقه بوتر هذه السنة المذكورة وله ثلاث وخمسون سنة^(٢) » .

وفذلك القول أن سيرة هذا الشيخ ما زالت غامضة قليلة المراجع التاريخية ولم نر من الآراء فيها الا رأى أعدائه والمخالفين له في العقيدة ، وربما كان تاريخه هذا منقولا عن رجل أو رجلين وذلك لا يكفي في استبانة حالة ، ولهذا نقف موقف الشاكرين من قول المؤلف « وبعد أن وجد نفسه بهذه المنزلة وفي جانبه جماعات كبيرة من المريدين ، يدينون به رأى أن ينفذ منوياته التي ظالما تختلج في صدره وهي ايجاد انقلاب واسع في الدين والعقيدة والسياسة وفي كل شيء » ، أليست الغاية من وضعه هذا الدين (كذا) هي تهيئة الأسباب التي تمكن من ايجاد هذا الانقلاب ؟ « فأكثر ما يصح أن يقال فيه انه كان غالبا من الغلاة » .

ومما استدركناه على المؤلف الفاضل في ترجمة الشيخ حسن بن عدي الأصغر المذكور أبيات ذكرها بدر الدين بن حبيب في ترجمة حفيده الشيخ زين الدين أبي المحاسن يوسف بن محمد بن الحسن بن عدي المتوفى سنة « ٦٩٧ » قال :

« وفيها توفي الشيخ زين الدين أبو المحاسن يوسف بن محمد بن الحسن بن الشيخ عدي ، رجل مطاع ، حسن الخلق والطباع ، مقابل بالتبجيل والاكرام ، محترم عند

(١) ابن قاضي شبهة في « أسماء الأعيان من تاريخ الذهبى » ، نسخة دار الكتب

الوطنية بباريس ٢٠٧٦ الورقة ١٨٣ .

(٢) أصول التاريخ والأدب « مج ٢٢ ص ١٦٥ » نقلا من تاريخ أبي الحسن

الخزرجي وهو ينقل من تاريخ ابن الساعي الشافعي :

أكابر مصر والشام ، جواد حليم ، سخي النفس كريم ، لا يبقى على درهم ولا دينار ، مع وجود الاقطاع والفتوح والادرار ، له زاوية مفوقة الايراد ، يفد عليها كثير من مريديه الاكراد ، يمد بها السباط للوارد وانقيم ، ويهب على اللاندين برحابها للقبول نسيم وأى نسيم . وكانت وفاته بمصر عن . . . سنة ، تغمد الله برحمته . ومن نظم جده الشيخ حسن بن عدى المشار اليه :

بداية نشوتي من خمر فيكا فكيف على الغرام الام فيكا ؟
وكان القلب لى وحدى قاضى هواك اليوم لى فيه شريكا
ملك الحسن قد جثاك تشكو تعرض ناظريك لناظريكا
ملكتم قلوبنا فعدت رعايا ولا ترضى سواك لها مليكا
وله :

تجاوز حسن أحمد كل حد فقولى فيه منقطع الجواب
لقد غلطوا بما قد لقبوه وهل بدر يلقب بالشهاب (١) »

ولقد نقل المؤلف فى أخبار بدرالدين لؤلؤ الاتابكى صاحب الموصل شيئا من كلامنا فيه ولم يستب له ، حتى الذى نقله بالنص . قلنا : « على أن بدرالدين لم يكن محمود السيرة ولا سالما من الجريرة (٢) » . وقال هو : « ويروى أنه لم يكن محمود السيرة ولا سالما من الجريرة » ص ٨٥ - . ومن البديهي أن هذا القول ليس برواية وانما هو اجتهاد فى الزرابة ، فالعمدة فيه على قائله ، ومعنى « يروى أنه لم يكن . . . » أن رأوا من الرواة أثر بالاسناد أن بدرالدين لم يكن كذلك ، وهذا لا يوافق المقام .

ونقل فى ص ٦٨ ما ذكره مؤلف الكتاب الذى ظنناه « الحوادث الجامعة » ص ٤٧١ من محاربة بدرالدين لؤلؤ المذكور للبيت العدوى وطافتهم سنة ٦٥٢ ونشه قبر الشيخ عدى واحرقه عظامه ، وفيه بعض النصوص والربك - أعنى المذكور فى الحوادث - والصحيح الواضح ما ذكره الخرجي فى حوادث تلك السنة قال :

« وكان زعيم الموصل بدرالدين لؤلؤ قد أخذ من أولاد الشيخ عدى الكردي (كذا) ألوفاً من العين على وجه الاكراد ، فعظم ذلك عليهم ، فأطلقوا ألسنتهم فى سيه ، فبلغه ذلك فأمر بنش الشيخ عدى من قبره واحرق عظامه ، فأنكى ذلك فى قلوب الاكراد واجتمع بعضهم الى بعض واتفقوا على نهب أعمال الموصل فنهبوا ، فطلب

(١) درة الأسلاك فى دولة الاتراك (نسخة دار الكتب الوطنية ببغداد)
١٧١٩ عربيات ، الورقة ٩٩ .
(٢) العراق بين احتلالين « ج ٢ » فى الملحق الثانى - ص ١٤ - .

بدرالدين أكراد الجبل فأتاه منهم ألف فارس فضم اليهم عسكريا وبغتهم لمحاربة الأكراد وأصحاب عدى فحاربوهم وكسروهم وغنموا أموالهم وأسروا منهم خلقا كثيرا وحملوهم الى الموصل ، فسلم بدرالدين تجاه القلعة منهم مائة وذبح مائة ، وأخذ شخصا معروفا وجعله عدة قطع . وكان ذلك في شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة (١) .

ومنه يظهر أن نش قبر الشيخ عدى واحرق عظامه سبقا حرب بدرالدين لهم ويظهر أيضا أنهم نهبوا أعمال الموصل قبل أن يسير الجيش اليهم ، وفي ذلك اتساق للحوادث التي جرت هناك .

ونقل في ص ١٠٣ ترجمة عزالدين أميران الكردي ابن بنت الشيخ عدى من كتاب الدرر الكامنة (٢) وفيها « قدم الموصل فولى بها الامرة » . والأصل « قدم دمشق » وهو الصحيح .

وتكلم المؤلف في ص ١٦١ وما يليها على وجه التسمية باليزيدية وتعيين الزمن الذي سماها به ، فقال : « وأول من وجدناه ذكرهم بهذا الاسم أبو فراس عبدالله بن شبل ابن أبي فراس بن جميل فانه ألف كتابا عام ٧٢٥ للهجرة (١٣٢٤م) سماه « في الرد على الرافضة واليزيدية » ، ولم يذكر ما احتوى عليه هذا الكتاب من الأبواب ، وقال : « يجوز أن هذا الاسم أطلق عليهم قبل هذا » . قلنا : إن الاعتماد على اسم الكتاب المذكور في معرفة تاريخ التسمية ليس بكاف في مثل هذا الأمر ، لأن الزيدية ، في أكثر كتب الفرق فرع من الرافضة ، فعلل اسم الكتاب الصحيح « في الرد على الرافضة الزيدية » أو « الرافضة والزيدية » ، ولكن الناسخ غلط في النسخ . إذن لا تثبت التسمية المدعاة حتى يؤيد ما في الكتاب عنوانه . وعطف الزيدية على الرافضة من بابه قوله تعالى : « فأكهه ورمأن » .

وانتقل المؤلف الفاضل الى ما نقله مؤلف « تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم » في تسمية « اليزيدية » من كتاب الأنساب للسمعاني المتوفى سنة « ٥٦٢ » فأنكر اتصال أولئك اليزيدية بهؤلاء في الدين والأنساب ، ونحن لا نرى موضعا لانكاره ، فقد تصافت الأخبار على أن كثيرا منهم أصلهم أكراد ، وقول المؤلف « يرجعون الى أصل مجوسى » لا ينفي كرديتهم ؛ لأن المجوسية دين لاجيل ، فالرد بين الضعف ظاهرة ، الا أنه يستطيع أن يقول ان التسمية باليزيدية لم تعم في ذلك العصر حتى ان المقرئ حين ذكر خبر احراق قبر الشيخ عدى سنة « ٨١٧ » من سلوكه سماهم أولا « العدوية » ثم

(١) أصول التاريخ والأدب « مج ٢٢ ب ص ١٦ » نقلنا من تاريخ أبي الحسن الحزرى وهو ينقل من تاريخ ابن الساعى . (٢) ج ١ ص ٤١٤ .

قال : « وصاروا في هذا الوقت يعرفون بين الاكراد بالصحبية » كما في الجزء المحفوظ
بباريس ذي الرقم ١٧٢٧ في الورقة ٢٨٥ .

وقال في ص ٤٢٢ في ذكر الشيخ ابن تيمية « يعدم مؤلفو الاسلام مجدد القرن
السادس الهجري » والصواب « القرن الثامن » لانه أدرك هذا القرن .

وأشار في ص ٤٣٣ الى فتوى الشيخ عبدالله الربتكي المدرس « ١٠٦٠-١١٥٩ هـ »
في اليزيدية وعده اياهم مرتدين ، ثم قال : « ونشك أيضا في نسبة هذه الفتوى اليه
ونرجح أن يكون واضعها غيره وعرفت باسمه » . قلنا : ان كان الشك في الأمور
والتأريخ بمثل هذه السهولة وهذا اليسر ، فاننا نستطيع أن نجحد أمورا كثيرة ، والتأريخ
لا ينقص بمثل هذا الأسلوب التحكيمي ، قال ياسين بن خيرة في حوادث سنة ١١٥٩ هـ :
« وفيها توفي الامام العالم العلامة ملا عبدالله المدرس ابن أحمد بن حسن الكردي
الموصلي ، له تأليف منها « مختصر الزواجر » و « شرح المنهاج » و « رسالة في جواز
استرقاق الرقصة وعبد الشيطان » وله تعليقات في جميع أنواع العلوم وله أرجوزة في
نظم الاشكال . وكان رفيع الجاه عند الملوك مجاب الدعوة ، وكان اذا حضر عند الملوك
لقضاء مصالح الناس يكون صائما لا يأكل أو يشرب عندهم ، وله كرامات ظاهرة ولا أهل
الموصل فيه اعتقاد ، وقبره في جامع نبي الله جرجيس رضي الله عنه ، وذكر لي ولده
الفاضل ملا ياسين أن لهم نسبة الى العباس رضي الله عنه وكان عندهم نسب فاحترقت
قربة ربك واحترق النسب في أيام جدهم المترجم (١) » .

وذكر في ص ٤٥٣ الحرب التي أنشبت على الاكراد العدوية الصحبية اليزيدية
وسبها جلال الدين بن عز الدين يوسف الحلواني الشافعي بعد أن حرض أمراء الجزيرة
عليهم ، وقال : « ثم من منا يعلم ما كان هذا الفقيه يحمله من عقيدة زائفة وقد خدع
الناس بها ؟ » . وقد كان قال في ص ٧٦ في ترجمة الشيخ عدى الكبير : « أليس مما
يدل على بؤسه تصدى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل أولا والمجتهد الحلواني ثانيا لحفر
قبره واخراج عظامه واحراقها ؟ » ، وقال في ص ٧٧ « لاختراصات (كذا) سياسية
ومذهبية كانت تحيى في صدر الملوك الاتابكي والمجتهد الايراني ولم يخجل أن يعلا
عملهما هذا بالجهاد في سبيل الدين ، وهل ان الدين تصدع وهدمت أركانه لسبب
ما أصاب هذه الطائفة من الضلال ؟ ... » .

(١) أصول التاريخ والأدب « مج ١٠ ص ١٣٠ » نقلا من الدر المكنون لياسين
العمري . وترجمته في كتاب « مشاهير الكرد وكردستان » ج ٢ ص ٤١ ، « ليست
بتحاوية لاسم تلك الرسالة ولا وافية » .

فلنا : جرت عادة العلماء من أمثال جلال (جمال) الدين محمد أن يفعلوا مثل هذا ، قال تقي الدين المقرئ في حوادث سنة ٧٠٤ هـ : « وفيها توجه شيخ الاسلام تقي الدين أحمد بن تيمية في ذي الحجة ومعه الأمير قراقوش المنصوري الى أهل جبل كسروان يدعوهم الى الطاعة فلم يجيبوا فجمعت العساكر لقتالهم ^(١) » وقال الذهبي في حوادث سنة ٧٠٥ هـ : « فيها نازل نائب دمشق بعساكره جبل الجرد ، وقهر الكسروانيين وفرقهم وأذلهم ، وهم روافض جهلة ، فتكوا بالجيش وقت الهزيمة وعملوا أجل قبيح (كذا) ^(٢) » .

والحلواني المذكور لم يكن يتهم بالزيف في عقيدته ولا بخديعة الناس ، وانما كان من أجلاء الشافعية ، قال شيخ الاسلام ابن حجر العسقلاني في ترجمة والده عز الدين يوسف بن الحسن بن محمود السرائي الأصل التبريزي الحلواني - بفتح أوله وسكون اللام مهموز - « الفقيه الشافعي ، ولد سنة ثلاثين وسبعائة ... واجتمع ببغداد بالشيخ شمس الدين الكرمانى ... فلما دخل الدعاعة وهم أتباع طقتمش خان تبريز وضربوها تحول الشيخ عز الدين الى مازدين ... وشرح الأربعين للنواوى ... وكان قد حج ثم زار المدينة فجاور بها سنة ... وكانت وفاته في سنة أربع وثمانمائة بالجزيرة فانه رجع اليها لما كثر الظلم في تبريز ففطنها الى أن مات وخلف ولدين بدر الدين محمدا وجمال الدين محمدا ، وحج بدر الدين سنة تسع وعشرين وأقام بحصن كيفا فشغل الناس بالعلم ، وحج جمال الدين سنة ثلاث وثلاثين وقدم القاهرة سنة أربع وثلاثين وأقام بها مدة وتوجه . وقد تقدم ذكره ^(٣) في سنة اثنين وثمانمائة ^(٤) » .

وقد كان ترجمه في وفيات سنة « ٨٠٢ » من الانباء نقلا من تاريخ حلب الذي للقاضي علاء الدين على بن خطيب الناصرية المشهور ، قال القاضي : « قدم علينا ولده جمال الدين فذكر أن والده مات سنة أربع وثمانمائة والله أعلم » . ومن هذا نعلم أن جمال الدين محمدا الحلواني كان كسائر الشافعية صحيح العقيدة معروفا بالفضل والسيرة الحسنة ، والظاهر أن ورود لقبه « جلال الدين » في السلوك تصحيف « جمال الدين » .

ونحن نوافق المؤلف الفاضل في أن نبش قبور الموتى من غريب الأفعال عند العقلاء ، ولكنه كان مألوفاً في ذلك الزمان وغيره .

(١) السلوك « مج ٢ ص ١٢ » . (٢) دول الاسلام « ج ٢ ص ١٦٤ » .

(٣) يعنى ذكر عز الدين يوسف . (٤) أنباء الغمر بأبناء العمر . نسخة دار

الكتب الوطنية ببازيس ١٦٠١ الورقة ١٩٥ . (٥) المرجع المذكور الورقة ١٧٠ .

وتكلم في ص ٤٥٤ على سلطة اليزيدية قال : « وفي الموصل ضربوا الرقم القياسي في الاستئثار بالقوة حيث تقلد أحد رجالهم وهو مرزا باشا الداسنى البعشيقى منصب ولاية الموصل (١٠٦٠-١٠٦١) وتولى يزيدى بعشيقى الحكم فى الموصل يدل على ما كان لهذه الطائفة من النفوذ والقوة فى ذلك العهد » . وقال فى الحاشية - يعنى ولاية مرزا باشا الداسنى - « هذا ما أيدته التقاويم الرسمية لولاية الموصل ، وفى الآثار الجلية لياسين العمري ما يخالف هذا » .

قلنا : وذكر العمري أيضا فى الدر المكنون مثل ما ذكر فى الآثار الجلية ، الا أنه قال بعد ذلك فى حوادث سنة « ١٠٦٠ » ما هذا نصه : « وفيها ولى الموصل ميرزا باشا المعروف بالداسنى على خلاف ما تقدم » . فلم يفت الرجل التنبيه الى هذا الخلاف ، كما يفهم من هذا الاستدراك .

ثم نقل فى ص ٤٥٨ من كتاب « غرائب الاثر » فى حوادث سنة (١٢٠٥) نزول اسماعيل باشا من قلعة العمادية وتطوافه فى مملكته وبلوغه قرى الشيخان ونزوله قصر نمر آغا واستدعاءه جولو بك بن بداغ بك وأمره بقتله ونصبه أميراً على الشيخان اسمه خنجر بك . وقال بعد ذلك : « وصاحب غرائب الاثر لم يدلنا على أسباب هذا القتل الذى أخذنا الآن نلصق درجة خطورته والاثار الذى أحدثه فى المجتمع اليزيدى وكيف رضى نمر آغا بقتل زعيمه الدينى فى داره » .

قلنا : ينبغى أن تلمس الأسباب فيما تقدم من الحوادث ، فإن مؤلف غرائب الاثر قال فى حوادث سنة « ١٢٠١ » : « وفيها حدثت بين والى العمادية اسماعيل باشا بن بهرام باشا واخوته قتل فطردهم وساروا الى زاخو وملكوها فبعث لحربهم أخاه الآخر على بك فطردهم من زاخو وجرت لهم أمور يطول شرحها ولا فائدة لنا بذكرها » . فهو اذن قد طوى من الخبر شيئاً ، نجدد فى الدر المكنون ، قال فيه : « وفيها حصلت فتنة بين والى العمادية اسماعيل باشا بن بهرام باشا وبين اخوته^(١) فطردهم من العمادية فساروا الى زاخو وملكوها واجتمعت عليهم خلائق من الاكراد اليزيدية ، فاستولوا على أموال فتح آغا ضابط زاخو ، فأرسل اسماعيل أخاه على خان بك لحربهم وأمدّه بالعساكر والى الجزيرة محمد بك فهرب لطف الله بك وحاصر على خان بك باقى اخوته ثم قبض منهم اثنين وأرسلهم الى العمادية ثم سار على خان بك الى حرب اليزيدية فهرب أميرهم جولو ابن بداغ بك وقتل من اليزيدية جماعة » . فهذا هو السبب فى قتل اسماعيل باشا جولو

(١) هم طيفور بك وحسن بك وبيك وبيك وحاجى بيك .

اليزيدى • وقد استجاز المؤلف أن ينقل من التواريخ بالواسطة دون اشارة اليها ، وليس ذلك بالطريق العلمى فى التاريخ ، من ذلك ما ذكره فى ص ٤٩٠ نقلا من الدر المكنون فى حوادث سنة ١١٦٧ ، قال : « وهذا ما قاله مؤلف الدر المكنون عنها : ان الى بغداد سليمان باشا غزا جبل سنجار وحاصره واستولى على قراهم ثم نزلوا يطلبون منه الامان وأقاموا هناك فأمر العسكر فحملوا عليهم من كل مكان وقتلوه عن آخرهم وكانوا أكثر من ألف رجل ومعهم بعض النساء ، وقتل من العسكر مائتان » • ففى أى نسخة من الدر المكنون قرأ هذا ومن أيهن نقل ؟ ان الذى ورد فى الدر المكنون فى حوادث سنة ١١٦٦ لا سنة ١١٦٧ هذا نصه :

« وفيها خرج من بغداد واليها الوزير سليمان باشا وجمع العساكر وقدم الى الموصل فقابلته بالاكرام والاقامات أمين بك بن الوزير حسين باشا الجليلي ثم توجه سليمان باشا الى جبل سنجار وحاصره ونهب بعض القرى ونزل اليه نحو ألف رجل وامرأة فقتلهم عن آخرهم وأبسر النساء والأطفال حتى بيعت الجارية بعشرين قرشا ، والغلام مثلها ، وعاد الى بغداد منصورا ^(١) » •

ولا يعني فى مثل هذا أن يكون الكتابان من تأليف رجل واحد •

ونختم نقدنا لهذا الكتاب النفيس فى موضوعه ومادته بأن مؤلفه ذكر أسماء مواضع بصورها العامة وان كانت تلك الصور قديمة بعض القدم ، كما جاء فى الصفحة الأولى « ثم جاء لالش فاهتزت به الأرض » • والصحيح « ليلش » بالياء بعد اللام ، قال عبدالحق البغدادي : « ليلش : قرية فى اللحف من أعمال الموصل شرقيها بها الشيخ عدى بن مسافر ^(٢) » ، وقد نقل هذا من معجم البلدان وترك قول ياقوت « الشافعى شيخ الاكراد وامامهم وولده » - يعنى الشيخ عدى بن مسافر ، ومن هذا نعلم أن عديا كان شافعيًا ، والشافعية مذهب عام للاكراد اذ ذاك • وجاء فى ص ٢١٥ حصن زائد والصحيح « حصن زياد » وهو حصن خربت أى خربوط • وكل ما ذكرناه لا يعدو - فى الحقيقة - أن يكون من الامور الطفيفة بالاضافة الى هذا التأليف الجسيم •

مصطفى جواد

(١) نسخة باريس فى الورقة « ٣٠٠ » •

(٢) مراد الاطلاع على الامكنة والبقاع •

الاختيار والجبر في صدر الاسلام

Free will and Predestination in Early Islam

تأليف : « مونتجومري وات » W. Montgomery Watt

من مطبوعات مكتبة « لوزاك » للمشرقيات بلندن سنة ١٩٤٨ . وهو كتاب قدمه « مونتجومري وات » سنة ١٩٤٤ م الى جامعة أدنبرة ليلفتر « بالدكتوراه » ، فمنحته الجامعة هذا اللقب ، ثم جعل محاضرا في العلوم العربية في الجامعة نفسها . وشاء المؤلف فشر كتابه سنة ١٩٤٨ م في (١٨١) صفحة متوسطة الحجم ، منها (٥) صفحات للفهرست و (٣) صفحات للمراجع .

وقد حصر المؤلف بحثه في المدة الواقعة بين سنة ٨٠ وسنة ٣٣٠ للهجرة (١) ، فتكلم على الرجال الذين كان لهم رأى خاص في الاختيار أو الجبر ، وعلى المذاهب التي بحثت في القضاء والقدر ، فابتدأ بالحوارج ، وعنى من آرائهم برأى ميمون وشعيب ، ثم انتقل الى تطور الفكرة المذهبية عند الحوارج وانتقالها من نزعة سياسية الى عقيدة دينية ، ثم تحدث عن فرق الحوارج التي ظهرت فيما بعد .

ثم انتقل الى غيلان ، فالرجسة ، ثم الى القدرية فبحث في تسميتها ، وشايح « نلينو » في ذلك وتحدث عن قدمائهم . ثم انتقل الى معبد الجهني ، ثم الى المعتزلة وفروعها في بغداد والبصرة ، ثم تحدث عن أشهر رجال المعتزلة ، ثم انتقل الى مثبتة القدر فحدث عن أبي حنيفة ، ثم انتقل الى الجهمية والجبر والمجبرة . ثم المثبتة ، ومنهم ضرار والنجار وبرغوث ، ثم تحدث عن هشام بن الحكم وخشيش والحراز . وأخيرا أداه المطاف الى البحث عن مذهب الأشعرى والأشعرين ، فخاتمة الكتاب .

وقد وضع في نهاية الكتاب ثمتا بالمراجع التي اعتمد عليها في تأليف كتابه ، وقسمها الى قسمين : مراجع عربية ومراجع استشراقية هي من وضع المستشرقين . وقد لاحظت أن المؤلف قد اعتمد على مراجع القسم الثاني أكثر مما اعتمد على مراجع القسم الأول ، ولاحظت أيضا أن المراجع العربية التي اعتمد عليها قليلة ، وقد يذكر المرجع مرتين أو ثلاث مرات : يذكره مرة ، ثم يذكر ترجمته ، ثم يذكر مختصره مثل كتاب « الفرق بين الفرق » للبغدادى و « الملل والنحل » للشهرستانى و « كتاب الابانة عن أصول الديانة » للأشعرى . وتبينت أنه لم يعتمد على المراجع التي ألفها أصحاب

المذاهب أنفستهم أو رجال من أتباعهم ، وهذا نقص في الكتاب كبير ، إذ كيف يمكن تصوير صورة صادقة لمذهب من المذاهب بالاعتماد على كتب المخالفين له وحدها بفض النظر عن الكتب والوثائق التي ألفها رجاله ؟ فلم أجد من الكتب التي ألفها علماء المعتزلة غير كتاب واحد هو « كتاب الانتصار في الرد على ابن الراوندى الماحد » للخياط ، وكنت آمل أن أرى تفسير « الكشف » للزمخشري في جملة المراجع التي يعتمد عليها في بحث آراء المعتزلة .

فأما الحوارج ، فلم أجد لهم مؤلفا بين المؤلفات التي رجع إليها المؤلف ، ومعنى هذا أنه أخذ ما قاله في مذهب الحوارج من كتب المخالفين لهم . وهذا شيء غير صحيح .

وقد لاحظت أنه لم يتعرض لرأى الشيعة في الجبر والاختيار ، وأعتقد أنه لم يعرف من أمرهم شيئا ؛ لأنه لم يذكر لهم مرجعا غير « كتاب فرق الشيعة » للنوبختي ، ولو تعرض لهم لوجد لمشكلة الجبر والاختيار مكانة كبيرة في علم الكلام عندهم ، ولوجد أن المتأخرين منهم قد عالجوا الموضوع معالجة المعتزلة له ، وأن مؤلفاتهم في هذا الباب تكاد تكون صورة طبق الأصل لمؤلفات المعتزلة ، في الاختيار وفي نظرية الأصل واللفظ ، وما إلى ذلك من آراء مدونة في كتب الكلام . ثم إن ما ذكره عن « هشام ابن الحكم » مناقض لما ورد في كتب الشيعة من آرائه وأحاديثه . وهنالك رجال عدة عاشوا في أيام « هشام بن الحكم » وكانوا مثله في الدرجة وفي الجدل مع رجال الفرق الأخرى ، لم يذكرهم المؤلف ولم يشر إليهم ، وقد كانت لهم مجالس في الجبر والاختيار .

وقد رأيت أيضا أن المؤلف اكتفى بسرد الآراء في الجبر والاختيار ، ولم يبحث في الأسباب التي أدت إلى ظهور مشكلة الجبر والاختيار ، وأهمها عوامل سياسية كان لها أثر كبير في ظهور مذهب « القدرية » ، ولم يشر إلى موقف حكومة المؤمنين الرسمي من « القدر » ، ولا إلى مقاومة رجال الحكومة للقدرية من حيث أن هذه الفكرة كانت لا تلائم نظرية الدولة التي أعلنت مرارا أن حكم « أمير المؤمنين » حكم أرادته الله لحير الأمة فلا يجوز اعتراض الناس عليه . ولما كان الكتاب قد قدمه مؤلفه إلى جامعة كبيرة للظفر بأكبر درجة علمية وهي « الدكتوراه » ، كنت آمل أن أرى رأي المؤلف واضحا مستقيما فيها ، وأن أقرأ نقده ومحاكمته ، وأطلع على حواراته بين الآراء ، ولكنني لم أجد شيئا من هذا ، بل وجدت في الحقيقة آراء الرجال مترجمة إلى الانكليزية كما جاءت في الكتب الإسلامية ، ومع

ذلك أرى أن المؤلف بذل جهدا كبيرا فى جمع هذه الآراء وعرضها ، لشرح مسألة خطيرة فى سيرة المسلمين الاجتماعية والدينية ، هى مسألة الجبر والاختيار .

بريطانية والدول العربية

Britain and 'The Arab States

تأليف : ستين ويليمس M. W. Seton - Williams

هذا الكتاب هو تذكرة فى الروابط البريطانية العربية منذ سنة ١٩٢٠ حتى ١٩٤٨ م . يقع فى ٣٣٠ صفحة من الحجم الوسط . وقد طبع فى مطابع « Burleigh » بمدينة « بريستول » « Bristol » ، بانكلترا ، بعناية مكتبة « لوزاك » « Luzac » من مكتبات انكلترا المعروفة فى عالم المشرقيات .

ومؤلفة الكتاب سيدة استرالية مثقفة ثقافة تاريخية وسياسية ، درست التاريخ وعلم السياسة ، واشتغلت بالآثار ، وزارت بلاد العرب عدة مرات قبل الحرب العالمية الأخيرة مع البعثات الأثرية التى قامت بالتنقيب عن الحضارات القديمة فى بلاد الشرق الأدنى ، واختلطت بمختلف الطبقات فى البلاد العربية ، ثم اشتغلت فى أثناء الحرب العالمية الأخيرة بوزارة الاستعلامات البريطانية فى قسم الشرق الأوسط منها ، واتصلت ، بحكم وظيفتها ، بكثير من الرجال المسؤولين من الجانبين : العربى والبريطانى ، واطلمت على وثائق مهمة ساعدتها على وضع كتابها « بريطانيا والدول العربية » .

تألف فصول الكتاب من مقدمة عامة هى المدخل الى كل الفصول ، يليها فصل فى ظهور الفكرة القومية عند العرب ، ثم فصول فى العراق ، ومصر والسودان ، وسورية ، ولبنان ، وفلسطين ، وشرقى الأردن ، والمملكة العربية السعودية ، واليمن ، وأمارات الخليج الفارسى ، وختمت هذه الفصول بفصل فى الجامعة العربية .

وفى الكتاب ملحق خصص بالوثائق الرسمية ، والمعاهدات والاتفاقيات التى عقدت بين الدول العربية ، أو بين الحكومات العربية والدول الأجنبية ، وثبت بالمراجع التى اعتمدت عليها المؤلفة فى تأليف الكتاب ، وفهرست أبجدى بالأعلام التى ورد ذكرها فى المتن ، وأربع « خرائط » .

والكتاب مفيد ، ما فى ذلك شك . مفيد ؛ لأنه على صغر حجمه يحاول أن يقدم كل ما يمكن تقديمه للناس عن الروابط العربية الانكليزية ، ولا سيما أولئك الذين

يريدون الحصول على نظرة عامة على هذه العلاقات وموقف الحكومة البريطانية من العالم العربي وسياستها ازاء الامارات العربية والمنحنيات ، وقليل من الناس من يعرف عن هذه الامور شيئا ، وفي هذا المختصر كفاية .

ومع ذلك يمكننا أن نذكر ملاحظات على هذا الكتاب . فمن ذلك أن المقدمة التي وضعت لتكون مدخلا له مقدمة موجزة ، لم تعرض لكثير من الامور المهمة التي كان يجب ذكرها . وقد بدأت بعمل التجار الانكليز في الشرق الاوسط في الاستانة وفي حلب ، وزحف « الشركة الشرقية » نحو الجنوب والجنوب الشرقي متبعة طريق القرات وطريق دجلة الى الخليج ، باحثه عن طريق برى يوصلها الى الهند ، بعد أن أصبح البحر في حكم البرتغال . وقد استطاع أحد التجار ، وهو « رالف فيتج » ، Ralph fitch » ، أن يصل الى « هرمز » Ormus ثم الى مدينة « كوا » Goa ، في الهند سنة « ١٥٨٣ - ١٥٩١ » . واستمرت هذه المقدمة حتى بلغت بالعالم العربي ما بعد الحرب العالمية الأخيرة . وقد كتبت المؤلفه كل هذه الحوادث ، وهي حوادث أربعة قرون في تسع صفحات متوسطة الحجم .

أما القسم الخاص بالمعاهدات والاتفاقيات فقد أهملت فيه وثائق مهمة لم يكن بد من اثباتها ، مثل معاهدة بريطانية والعراق لسنة ١٩٢٢م ، وتقرير اللورد ملر عن مصر لسنة ١٩٢٠م ، واتفاقية النيل ١٩٤٦م ، والكتاب الأبيض للحكومة البريطانية عن فلسطين في مايس سنة ١٩٣٩م ، وقرار التسييم الذي اتخذته هيئة الأمم المتحدة في نوفمبر سنة ١٩٤٧م ، وعلان الجنرال كاترو عهده باستقلال سورية ولبنان سنة ١٩٤١م ، ثم الرسائل التي تبادلها المستر « لتل تن » والجنرال ديفول .

وقد أوجزت في أمور كان لزاما عليها أن تفصل فيها القول ، فمن ذلك ايجازها في الاتجاهات والموجات الفكرية التي تعم الشرق الأدنى في الوقت الحاضر ، أو التي تحاول أن تجد لها مكانا فيه مثل حركة جمعية الاخوان المسلمين ؛ فقد أوجزت فيها كثيرا ، وجاء التعليق المذكور في الحاشية « رقم ٣٠٠ ص ٨٨ » مختصرا جدا ، وكذلك الآراء السياسية في البلاد العربية . وأهملت كثيرا من المسائل الحيوية التي لم يكن بد من التعرض لذكرها ، كالأحزاب السياسية في البلاد العربية بمبادئها وآرائها ووجهة نظرها بالنسبة للحكومة البريطانية السياسية ، ومشروع سورية الكبرى والمشروعات السياسية الأخرى .

وقد اقتصر الكتاب في الواقع على الأحداث السياسية فقط ، فعنى بتغير الوزارات

وتبدل الحكومات ، وبالمعاهدات والاتفاقيات ، ولذلك جاءت صفحاته مكتظة بالأرقام والأسماء . فاما النواحي الفكرية والاتجاهات الروحية والحزبية والمشكلات الاجتماعية والثقافية ، فقلما عنت بها المؤلفة ، حتى المسائل التي لها ميسر بالسياسة البريطانية لا تجد لها موضعا في الكتاب ، كالتشيعوية مثلا ؛ فانها لم تتعرض قط لذكرها ، كما أنها لم تذكر الأحزاب أيضا ، فقد تعرضت مرارا عدة لذكر النحاس باشا مثلا ، ولكنها لم تبحث عن الوفد المصري والأحزاب الأخرى مع ما لهذه الأحزاب من أثر في علاقة بريطانيا بالبلاد العربية ، ويصدق هذا القول على الوضع في العراق وفي الاقطار العربية الأخرى .

واحق أننا اذا أردنا نقد الكتاب من هذه الناحية ، فاننا سنجد فيه نواقص كثيرة ، ولكننا اذا نظرنا اليه نظرنا الى كتاب أخبارى موجز ، غايته سرد الحوادث والعلاقات البريطانية العراقية سردا زنيا ، ألفناه كتابا أقرب ما يكون الى كتب المذكرات ، فهو لذلك يفيد متبع الوقائع والمراجع ، كما يفيد القارئ الذي يحب العرض السريع على طريقة « جرائد الأخبار المصورة » التي تعرض للأخبار في دور السينما . ولكننا لا نجد فيه رأيا شخصيا لمؤلفة الكتاب ، ولا نقدا للأوضاع السياسية أو الاجتماعية في بلاد الشرق الأدنى ، ولا أحكاما اجتهدية في السياسة البريطانية وفي أعمال الرجال البريطانيين في بلاد العرب ، ولا نستطيع أن نعرف منه مدى تأثير السياسة البريطانية في أوضاع البلاد العربية وفي المشكلات القائمة . وهو بهذا يختلف عن الكتب التي ألفها مؤلفون بريطانيون أو أمريكيون في هذا الباب . ولا بد من الإشارة أيضا الى أن الأعلام الواردة في الكتاب غير مضبوطة وفيها كثير من التحريف .

سناد الاسلام

The Background of Islam

تأليف المستر فليبي

عدة أوراقه « ١٥٢ » ورقة ، وفهارسه في « ٧ » ورقات . طبع بمطبعة « وايت هيد مورس »
« Whitehead morris » بالاسكندرية بمصر ١٩٤٧ .

يختلف طبيعة هذا الكتاب عن كتب « فليبي » الأخرى ، فهو كتاب تاريخي بحث ، تناول فيه تاريخ العرب قبل الاسلام من حيث هو الاساس الذي قامت عليه دعائم الاسلام ، فلم يضمه شيئا من مخاطراته ورحلاته واستكشافاته ، وهو من أكثر المستعربين خبرة

بهذه الأمور ، وإنما قصره على تاريخ العرب « القحطانيين » ، ولم يتعرض لتاريخ القسم الثاني من العرب الذين ظهر الإسلام في ديارهم ، وهم العرب العدنانيون « إلا بقدر ما لهم من اتصال بالقحطانيين ، مع ما لهؤلاء من أهمية في نشوء الإسلام .
وقد عرض للقحطانيين الذين عاشوا في الأقسام الجنوبية من جزيرة العرب أعني اليمن وحضرموت وعمان ، فبحث في الدول العربية القديمة ، وهي : معين ، وقحان ، وسبأ ، وحضرموت ، وأوسان ، وفي الخلافات التي كانت بين « حاشد » و « بقيل » ومملكة « ساء وذي ريدان » ، ثم حملة الرومان على اليمن بقيادة « أوليوس غالوس » ، وبحث في غزو الأحباش الأول لليمن ، ثم ظهور مملكة « ذى نواس » التي اتبعت سياسة عدائية للنصارى فنكلت بالجرانيين وبصارى اليمن عامة ، واستشهد في ذلك عدد كبير من مؤمنهم ، حتى أدى الأمر إلى تدخل الأحباش واحتلالهم اليمن مرة ثانية ، ثم اخراجهم منها واحتلال الفرس لليمن إلى ظهور الإسلام الذي طهر بلاد العرب من رجس الأعداء .

ولم يتعرض للحكومات التي تأسست خارج اليمن ، تلك التي رجح السابون نسبها إلى قحطان ، مثل : مملكة الفسياسة ومملكة المناذرة ، ويشرب القاعدة الكبرى للقحطانية في الحجاز التي لها أهمية بالنسبة لظهور الإسلام . وأستطيع أن أقول : انه قصر بحثه على حضرموت وانمن . وقد دفعته إلى ذلك النظرية التي تأثر بها ، وهي أن اليمن وما جاورها الموطن الأصلي للشعوب السامية ، منها خرجت تلك الشعوب وتوجهت إلى الشمال ، وهي عكس النظرية الشائعة بين جماعة المستشرقين المتأثرين بنظرية التوراة .
فهذا الكتاب هو في الواقع تاريخ لليمن من أول مملكة عرفت فجهبا إلى ظهور الإسلام ، ولذلك لا ينطبق عنوان الكتاب على ما جاء فيه . وقد كان على المؤلف أن يدرس بواجب أخرى أهم من هذه لمعرفة الأسس التي قام عليها الإسلام ، وكان حري أن يدعو كتابه بتاريخ اليمن القديم ، أو « تاريخ القحطانيين في اليمن » ، أو ما شاكل ذلك من عناوين لها صلة مباشرة بمادة الكتاب ونظرية المؤلف التي تحاول لفت النظر إلى البلاد العربية الجنوبية على اعتبار أنها الموطن الأصلي للشعوب السامية .

وبدل الكتاب في الحقيقة على أن المؤلف قد بذل مجهودا كبيرا في استقصاء تاريخ اليمن القديم وفي تسيق المعلومات المتناثرة التي لم تنظم تنظيما علميا حتى الآن ، وعلى رجوعه إلى مراجع كثيرة تكونت منها مادة هذا الكتاب . ولكنني كنت أطمح أن أرى هذا المؤلف في صورة أخرى : كنت أضع أن أراه كتابا حيا تجرى في عروقه دماء غزيرة ، ويعبر عن خبرة « فلي » الطويلة التي اكتسبها في بلاد العرب منذ الحرب العالمية الأولى

حتى الآن . كنت أطمح أن أرى تجارب فلبى ونتائج مباحثه وتحقيقاته التاريخية ماثلة في هذا الكتاب ، وأن أقرأ تصحيحاته لغلطات المتقدمين ، وأن أجد شروحا جديدة لما جاء موجزا في كتب الذين سبقوه ممن عنوا بتاريخ اليمن القديم ، فلقد اتسع له من الوقت ونسى له من الأحوال ما لم يتسن لأحد غيره ، وزار أماكن تاريخية ذات قيمة يصعب على غيره من الأوربيين والشرقيين المعينين بتاريخ العرب القديم الوصول إليها . ولكن طمعى هذا لم يتحقق إذ خرجت من الكتاب بخلاصة آراء المتقدمين ، لا بوجهات نظر « فلبى » الذى كنت أود أن أراه مجتهدا في تاريخ العرب القديم ، له رأى خاص وثيق يمثل رأى المؤلف الذى عرف بصلابة رأيه فى أثناء اشتغاله فى الوظائف السياسية ، ينقل الى الباحثين الذين لم يسعدهم الحظ بزيارة تلك الأماكن رأى « فلبى » واستكشافاته الخاصة فى تلك الأرضين المجهولة ، فى قالب علمى جدى خارج عن أسلوب كتب السياحات .

وقد وردت فى الكتاب نظريات تكلم فيها المستعربون ، ولكنهم لم يتوصلوا الى نتائج ايجابية حتى الآن مثل نظرية الأبيدية وعلاقة الخط المسند بالأبجدية الفينيقية ، أو بالعكس . وكانت هذه المسألة لا تزال موضع جدل بين العلماء الذين يرون قدم دولة معين وقدم خطها تبعاً لذلك ، ثم ما يترتب على هذا من نظريات . وهناك نظرية أخرى هى نظرية « ابراهيم » وموطن ابراهيم ونظرية العرب القدامى فيه ، وهل كان أهل اليمن يعدونه جدا لهم فى العصور السابقة للإسلام وفى العصور التى سبقت ميلاد المسيح ، وهل كان « ابراهيم » جدا للساميين ، وماذا كان يقال له عندهم ، وهو موضوع وضعت فيه مؤلفات ومباحث ؟

وقد لاحظت أن المؤلف منغم بتحديد أيام الملوك ومدد حكمهم ، فوضع لهم وقتا زعم أنهم حكموا فيه ، وعصرا رأى أنهم عاشوا فيه . وهذا فى نظرى أمر غير ممكن فى الوقت الحاضر ؟ فإن كان المتخصصون لم يتفقوا حتى الآن فى مبدأ قيام هذه الدول وسقوطها ، وفى عمر الكتابات وإن كانت الكتابات أغفالا من التاريخ سوى عدد أرخ بتاريخ لا يزال فى حكم المجهول ، كأن يقال انه كتب فى شهر كذا من حكم الملك الفلانى ، وإن كان الملك نفسه مجهولا عندنا - فكيف نستطيع أن نستخرج من ذلك تاريخا ولو تقريبا للملوك ؟ ذلك فى نظرى أمر غير ممكن فى زماننا ، وقد يسوقنا الى غلطات شتى قد تولد أتعابا كثيرة عند اصلاحها فى المستقبل من الزمان .

ولاحظت أيضا أن المؤلف لم يذكر أرقام الكتابات ولا النصوص والنقوش التى أخذ منها مادته ، مع أن ذكر ذلك من الأمور الضرورية فى الكتب العلمية وللباحث الجاد الذى

يكتب كنهه لأصحاب العلم . ولم يشر أيضا الى المراجع التي أخذ منها ، بل اكتفى بالإشارة الى آراء جماعة من المستشرقين مثل « هومل » وغيره ، ولكن لهؤلاء كتب ومباحث ومقالات في مئات مجلات ، فمن أى كتاب أو بحث أو مقالة نقل (فلبى) هذا الرأى ؟ نضيف الى ذلك أن فى ذكر المصادر فائدة للقارىء . أفلمها ارشاده الى مراجع جديدة لم يكن يعرفها فتزيد معلوماته فى ذلك الموضوع .

ولم أجد فى الكتاب « خريطة » ولا صورة للإماكن الأثرية والآثار الفريدة التي لا تزال فى مواضعها ، ولو كان المؤلف انسانا آخر غير « فلبى » لما طالبته بخريطة أو صورة ، أما المؤلف هو الرحالة المعروف الحبير بشؤون بلاد العرب ، وعنده ، ولا شك ، صور ومعرفة بجغرافية بلاد العرب الجنوبية لا توجد عند غيره ، فذلك يحملنا على ابداء هذه الملاحظة . ولعل عذر المؤلف فى ذلك أنه كتب كتابه هذا للخاصة ، وجعله هدية لعدد محدود من الناس ، فقد كتب فى صدر الكتاب أنه طبع بعدد محدود لم يتجاوز « ٥٠٠ » نسخة ، تحمل كل نسخة رقما ، وعليها امضاء المؤلف . ويظهر أنه اتبع فى ذلك خطة « لورنس » وطائفة من المؤلفين فى طبع كتب لهم بنسخ محدودة توزع بين طبقة مختارة من الناس .

ولا بد لى من الإشارة الى كتابة الأعلام فى الكتاب ، فان المؤلف لم يتقيد بالطريقة الاستشرافية فى تدوين الأعلام ، وتلك أمور حساسة بالنسبة للكتب العلمية ، فان تهاونا سيرا قد يوقع القارىء فى هفوات من حيث كيفية النطق بأسماء الرجال أو القبائل أو الأماكن ، فلا بد من السير على الطريقة العلمية فى كتابة بعض الحروف مثل : ح وخ وص وط وظ وع وأ ، وكتابة المدة ، وقد تساهل المؤلف فى ذلك ، وسار على الطريقة المألوفة فى كتب السياحات أو الكتب التي لا تحمل الطابع العلمى فى التأليف .

ان هذه الملاحظات اليسيرة لن تؤثر حقا فى قيمة الكتاب ومجهود المؤلف القيم ، وأنعابه التي لا يقدرها الا من اشتغل بهذا القسم من التاريخ الذى لم تكتب فيه الا كتب قليلة . وأعترف بأننى قد استفدت من قراءة هذا الكتاب فوائد كثيرة .